أبعاد الطائفيـــــة في لبنان والعالم العربـــي

بقلم كمال يوسف الحاج

(القيت هذه المحاضرة في جامعة الروح القدس الكسليك ضمن سلسلة من محاضرات قامت بها هذه الجامعة سنة ١٩٦٩)

سيادة النائب البطريركي الجليل الاحترام

أيها الحفل الكريم ،

لدينا مشكلة، بل معضلة، هي الطائفية. موقفي منها انني معها. اذاً أنا طائفي. هـــذا مـــا اسارع الى اعلانه أمامكم . لقد لففنا كثيراً الخيوط الجدلية، حول عنـــق الطائفيـــة لخنـــق الصوت، غير أن صوتها لم يختنق. لقد نافقنا كثيراً عليها وما زلنا. لكن مهما نافقنا علـــى بعض الناس كل الوقت، أو على كل الناس بعض الوقت، فنحن لا نستطيع أن ننافق على كـــل الناس كل الوقت. الطائفية هي من تلك الحقائق الكبيرة عندنا التي لا نســـتطيع أن ننـــافق عليها كل الوقت لدى كل الناس. لذا بقيت مركوزةً في شحومنا ولحومنا رغم كل التطريزات والتخريجات التي نتذّرع بها في سبيل الغائها. وحتى اليوم لم تلغ.

أجل ! هناك نفاق منا على الطائفية. هناك ازدواجية منا حيالها. نظرا نحن لا نريدها فـــي حياتنا، اذا يجب أن تلغي؛ عملا نحن لا نفعل الاها، لذا هي باقية. والراجح انها ســـتبقى. فقد ساقتنا هي ذاتها، اخيرا، الى أوضح الاشكال بصددها حتى غدونا نطالب بـــها، جـــهارا وعلنا، في الادارة والاجتماع والسياسة.

هذه الازدواجية ينبغي أن تزول لأنها دليل فسخ موجود في شـــخصيتنا الانســـانية...فســـخ يعرضنا للانهيار يوم تعصف الرياح. وكم تكاثر عصفها منذ حين. من الافضـــل بـــل مـــن الاوجب والحالة تلك أن يزول الفسخ فيتناغم الوضع الطائفي مع الفكر اللاطائفي. فامـــا أن يكون وضعنا كفكرنا اللاطائفي فتلغي الطائفية نظرا وعملا، واما أن يكون فكرنـــا كوضعنـــا الطائفي فلا تلغي الطائفية لا نظرا ولا عملا. يعني اذا كان يجب على الوضـــع الطـــائفي أن يكون، فليكن بصراحة فكرية واضحة ايجابية، واذا كان يجب على الوضـــع الطـــائفي أن لا يكون، فليذهبن مع الريح ايضا بصراحة فكرية واضحة ايجابية.

الحقيقة لا تقبل الفصل بين النظريات والتطبيقيات. لذلك سارعت الى اعلان موقفـــي مـــن الطائفية. اعلنت انني معها فكرا وعملا. اذا أنا طائفي بالقول والفعل. ولا تستغربوا. فقد

عقدت النية على أن أكون ، في سياقات حديثي، صريحاً للغاية، واضحاً للغاية، واقعياً. ذلك أن وضع لبنان الحالي لم يعد قادراً على غير الصراحة الواضحة الواقعية. لا سيما في ما يعود الى قضية الطائفية التي هي أعمق مما نظن واخطر.

سؤال واحد طرح ذاته على وجداني بعنف والحاح. لماذا لا تلغي الطائفية وقد تعاقدت كل النداءات على المطالبة بالغائها ؟ لماذا تزيد شوكتها يوماً بعد يوم في حين أن كل الجهودات منصبة نحو ازالتها ؟ هذا هو السؤال. اجيب عنه بادئاً من البداية.... أعني من التحديد. فما هي الطائفية ؟

١ – ما هي الطائفية ؟

سأنطلق هنا من نظرية الاب جبرائيل مالك اليسوعي التي عرضها بتاريخ ٢٦ آب ١٩٦٨ تحت عنوان " النظام الطائفي في لبنان أساسه سوسيولوجي لا ديني " . وذلك في سلسلة من الاحاديث تناولت " النظام الطائفي في لبنان " كان حزب الكتائب اللبنانية قد نظمها بين ٢٦ آب الماضي و ٣٠ منه.

يذهب الأب مالك من المبدأ الوجداني التالي : " لا يوجد انسان بدون دين " . وقد أخذ الدين هنا بفحواه العام الذي هو تجوال ضميري بالضمير في ضميره حول معميات واجبة الوجود.

الأب مالك على صواب في هذا المنطلق. ثمة أسئلة أو معاضل وجدانية تطرح ذاتها جبراً على الانسان. الانا، العالم، الموت، الروح، المادة، الجسد، الخير، الشر، الله...الخ. هذه الليشيّات الناخعة، في أعمق أعماق اعاميقنا، من منا لا يتساءل، ولو مرة واحدة مدى العمر، عن غياهبها المحجوبة خلف ستائر الجهل ؟ الانسان وحده يعرف ازاءها انه لا يعرف. هنا منبع الشعور الديني، في هذا القلق عينه. هنا مبدأ الارتفاع نحو الايمان بالله. لذا نرى أن الفكر الانساني بني في أصله بناء هرمياً ينيخه الى الاعتراف بوجود الله. فبسبب الجسد اتت معرفتنا دائماً وابداً معرفةً لشيء خاص. من المحسوس تبدأ...أي من الآن في الزمان والهنا في المكان. لكنها لا تكتفي بهذا المحسوس. هناك الروح التي تتناول كل آن في الزمان وكل هنا في المكان. بمقولات الروح تتخطى معرفتنا محسوس الجسد الى المطلق في اللازمان واللامكان. لولا الروح ماكانت المعرفة التي هي حكم نصدره على شيء خاص في ضوء مقول عام. وهكذا نرتفع من محسوس خاص الى مقول عام لندرك اخيراً المقول الاكبر، مقول المقولات، الذي لا بعد بعده ولا قبل قبله ولا فوق فوقه. انه الله. حتى الملحد هو يؤمن بهذا الواجب الوجوب البادىء. " حتى الالحاد دين "

. الكلمة هنا للاب مالك. وهي صحيحة. ان جميع المناقشات تدور حـــول الشـــكل الـــذي لوجود الله. من حيث المبدأ ان الفكر الانساني هرمي البناء.

الى هنا احالف الاب جبرائيل مالك. ومن ثم اختلف عنه لانه حصر الدين في تلك الاغـوار الضميرية من الانسان الفرد. لقد اعتبره قضية جوّانية. اما انا فانني اتابع رحلتـــي مـــن الداخل الى الخارج. أقول بأن الدين ذو خطين : خط عمودي وخط أفقي.

الخط الأول يربط الانسان بالله ربطاً ايمانياً أو عقيدياً. لكن الانسان لا يبقي الشعور الدينـــي داخل داخله. والسبب واضح. الدين حقيقة. والحقيقة تحقيق. يعني أن الدين عمل يسوق الانسان سوقاً الى تعييش الدين في المجتمع. ذلك هو الخط الافقي الذي يربـــط الانســـان بالانسان. الدين بحاجة الى تظهير ، تماماً كما أن الفكر بحاجة الى تعبير، والقـــوة بحاجـــة الى فعل. اذاً الدين مقرون حتماً بالسوسيولوجي.

ان علاقة الانسان بالله لا تكتمل الا في علاقة الانسان بالانسان. ولا عجب. فاين تتجســـد الفروض الدينية ؟ بين انسان وانسان. هي صادرة عن الله. ويجب أن تتحقق . وهـــي لا تتحقق الا في المجتمع بين الانسان والانسان انطلاقاً من واجب العلاقة بين الانســـان والله. لذا كانت علاقة الانسان بالانسان ديناً ايضاً كما هي علاقة الانسان بالله. اذ لا فعالية لعلاقـــة الانسان بالله الا في علاقة الانسان بالانسان، ولا قيمة البتة لعلاقة الانسان بالانسان الا فـــي علاقة الانسان بالله.

من هنا خطأ الشق الأول في القول بأن الدين لله والوطن للجميع. ان الله ليس بحاجة الـــى الدين. الانسان هو المحتاج. الانسان هو الناقص. والناقص وحده يحتاج الى الكامل. هذا الشعور بتلك الحاجة هو جوهر الدين الكائن في الخطين معاً : الخط العمودي الـــذي يربـــط الانسان بالله والخط الأفقي الذي يربط الانسان بالانسان. اذاً الزمـــان والمكـــان ضروريـــان للدين. وهكذا نقع في نسبية التاريخ والبيئة... في السوسيولوجي الذي هو مجموع التقاليد والعادات والتراثات والطقوس والمراسيم.

ها هنا مصدر الطائفية. الدين جوهر. الطائفية وجود. الدين قوة، الطائفية فعل. الديـــن علاقة شخصية بين الانسان والله، الطائفية علاقة اجتماعية بين الانسان والانسان. وكمـــا انه لا بد للانسان من دين، حتى للملحد، ايضاً لا بد للانسان من طائفية تمظهر له الدين. اذ الدين لا يزاول في الدين وانما في قلب المجتمع بواسطة الطائفية. الدين والطائفية علاقتان تتداخلان في ما بينهما تداخلاً عضوياً هو من أصل كياننـــا الآدمـــي. الديـــن والمجتمـــع متلازمان. وهل من فعالية لدين لا يزاوله الانسان في المجتمع بواسطة الطائفية ؟ هل من

قيمة لمجتمع لا يوجه الانسان نحو سماء الدين ؟ دينٌ مفصول عن السوسيولوجي يغـــذي الأنانية.

أفهم لماذا قيل بأن الدين لله والوطن للجميع. المقصود منه أن نتحاشى التعصب. ولكن من يستطيع أن يثبت كون التعصب وليد الطائفية ؟ أين العلاقة بين الطائفية والتعصب ؟ أنـا لا أراها. التعصب شيء، والطائفية شيء آخر. التعصب مزاج فردي يـــزول مـــع التربيـــة وبالتربية. الطائفية ضرورة اجتماعية للدين تمظهره بواسطة التاريخ في تقاليد وعـــادات وطقوس ومراسيم وتراثات.

كلمة طائفية تحمل فيها تلك المعاني النسبية التي للزمان والمكان. لغة الطائفية تأتي مـــن الطيف. والطيف هو الخيال. وهذا يفيد أننـــا لا نـــدرك حقيقـــة الديـــن الا فـــي خيـــال الطائفية...أي في نسبية المظاهر التي ترمز الى الدين دون أن تكون جوهر الدين. ثـــم ان هذا الطيف طواف بمظاهره... أي نقيل. والانتقال هو الزمان. والزمان تغيـــير يجـــب أن يطرأ على مظاهر الطائفية.

علم الفريسيون ذات مرة أن المسيح أفحم الصدوقيين. فتألبوا حوله. وسأله واحد منـــهم، وهو من علماء الناموس، ليجربه : " يا معلم، ما أعظم الوصايا في الناموس ؟ " فقال لـــه : " أحبب الرب الهك بكل قلبك، وكل نفسك، وكل ذهنك. هذه هي الوصية الكبرى والاولى. والثانية تشبهها. احبب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء " (متى ٢٢ : ٤٠ .)

في هذا الجواب اظهر المسيح كيف أن حقيقة الناموس، التي هي ناموس الحقيقة، موجـــودة ضمن العلاقتين الكائنتين في الخطين : الخط العمودي الرابط وجود الانسان بجوهر الله (احبب الرب الهك) وفي الخط الافقي الرابط وجود الانسان بوجود الانسان (احبب قريبـــك كنفسك). ثم اوضح المسيح أن العلاقتين تتساويان في الاهمية عندما قال عن الثانية بأنـــها تشبه الاولى. لقد أمرنا المسيح أن نقيم علاقاتنا بالله من خلال محبة القريب. لذا من انكـــر الله وجب عليه أن ينكر الانسان، ومن كرم الانسان وجب عليه أن يكرم الله.

" ان قال احد اني احب الله وهو مبغض لأخيه فهو كاذب لأن من لا يحب أخاه الذي يـــراه كيف يستطيع أن يحب الله الذي لا يراه " (١ يو ٤ : ٢٠).

برغسون نوه بمثل هذا الرباط الوثيق بين الخطين العمودي والافقي فـــي كتابـــه " منبعـــا الاخلاق والدين " حين تكلم عن المحبة عند المتصرف.

قال : " ان المحبة التي تلعج قلب المتصوف هي أكثر من محبة انسان لله. انها محبـــة الله لكل بشر. فمن خلال الله ، وبواسطة الله ، يحب المتصرف الانسانية، جمعاء، محبة الهية ".

في هذا الرباط الوثيق، بين خطي الدين، وحدة السماء وتنوع الارض. تلك هي الحقيقة. وحدة السماء، أو الجوهر، كنور الشمس. تنحدر من العلاء، وتظل هي هي، في عين عينها. لكن انحدار النور يتخذ الواناً مختلفة، حينما يدرك الارض، لأن الكائنات هنا متنوعة. مثل وحدة السماء، في ذلك، مثل اللغة البشرية. انها واحدة في الجوهر. الا انها تنشعب الى السنة مختلفة بحسب الشعوب المختلفة.

تلك هي الجدلية بين وحدة السماء وتنوع الارض. انها جدلية الوحدة الالهية والتنوع البشري. لكل منهما منطق لا يغالط. فمن الخطأ أن ننوع وحدة السماء وان نوحّد تنوع الارض. لهذا منطق محقوق، ولتلك منطق محقوق. ان لم يكن لك وحدة السماء فدينك ليس من السماء، وان لم يكن لك تنوع الارض فدينك ليس للانسان. لا اطلاق على الاطلاق. ان الدين ذو خطين متماسكين : خط عمودي يتناول الوحدة الالهية التي تبقى هي هي، وخط أفقي يتناول التنوع البشري الذي يتبدل. ذلك هو الناموس الاكبر.

لا شك في أن الانسانية تفقد الكثير من جمالها، وجلالها، يوم تجعل الالوان المختلفة لوناً واحداً، وهي تخسر الكثير ايضاً من روعتها، وهيبتها، يوم لا تؤلف الكائنات المختلفة وحدة باهرة. هذا التزاوج، بين وحدة السماء وتنوع الارض، هو الوسط العادل. فاذا تطرفنا نحو الجوهر وحده، أو نحو الوجود وحده، اضررنا بالوحدة الالهية والتنوع البشري. االوحدة تحتاج الى التنوع، والتنوع يحتاج الى الوحدة. هذا هو الايمان الصحيح. وعكسه تعصب. ان الخطر ليس في التنوع بل في الانقسام. الذين يعتبرون المسيحية ديانةً ما ورائيةً ليسوا محقين. ان ملكوت الله لا يكون وراء التاريخ وفوق العالم. التاريخ والعالم هما مكان تجلي الابدية. ونحن لا نستطيع أن نهرب من التاريخ ولا من العالم.

هنا أجدني حيال علاقة الدين بالدولة. موقفي منها ايجابي. اني اقرها. ذلك أن ارتباط الانسان بالانسان ليس اجتماعا طارئا. انه مجتمع قومي. الدولة هي اسمى تعبيراته.

جاء يوما بعض علماء الناموس في اسرائيل الى المسيح ليجربوه فطرحوا عليه السؤال التالي :

" يا معلم ايجوز أن ندفع الجزية لقيصر ؟ فقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله "
(متى ٢٢ : ١٩).

معظم الشارحين استندوا الى تلك الآية لاظهار الفصل بين الدين والدولة. وقد خدعهم حرف الواو هذا فلم ينتبهوا الى أنه غير فاصل. لقد ميز. والتمييز وصل على طريقة اخرى. لقد ميز المسيح بين ادارتين : الادارة الروحية (اي الكنيسة) والادارة الزمنية (اي الحكومة) دون أن يفصل ما بين الدين والدولة من اواصر ثابتة وصلات واثقة. ان

الحقائق التي يقوم عليها الدين تقوم عليها أيضاً. اذ الانسان هو هو في الروحيات والزمنيات. وتقسيم الانسان الى شعوب وامم هو من عمل الله.

" وقد صنع من واحد جميع امم الناس ليسكنوا على وجه الارض كلها وحدّ الأزمنة المعينة وتخوم مساكنهم " (اعمال ١٧ :٢٦).

ذا العناية االالهية هي التي أوجدت كثرة الشعوب والامم. االدولة أمر مقدس وفصلها عن الدين شيء خاطىء. لهذا وجب على رجل الدين أن يتدخل، عندما تدوس الدولة المبادىء القومية، التي هي ايضاً في باب الدين، لا سيما اليوم، بعد أن شملت سياسة الدولة كل مرافق الحياة. لقد اصبح عسيراً على رجل الدين أن يظل بعيداً عن السياسة . اذ كيف يستطيع أن يقضي حاجاته القريبة والبعيدة وقد هيمنت السياسة على كل المنافع الاقتصادية ؟ كيف يستطيع أن يكون مسؤولاً عن الاوضاع الخاصة به، التي فيها يمارس الدين، اذا كان لا يراقب السير الوطني مراقبة فعالة ؟ لتحقيق المثل الدينية بعض الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. اذ انه لا دين بدون مجتمع، ولا مجتمع بدون اقتصاد، ولا اقتصاد بدون سياسة.

في ضوء هذا المفهوم وجّه الى اللبنانيين البطريرك الكردينال بولس بطرس المعوشي رسالته الاخيرة " الى أين المصير " حيث قال

" ان هذه البطريركية وقفت حتى اليوم من القضايا العامة موقف المراقب، على أمل أن تكون العهود الاستقلالية منطلقاً لخدمة لبنان وتوطيد اوضاعه...

وموقف البطريركية هذا لا يعني كما يتوهم البعض انها تخلت عن مسؤولياتها التاريخية والتزاماتها الوطنية، وفقدت دورها في الحياة اللبنانية... حتى يخلو الجو... لاشاعة الفوضى والفساد وجر البلاد في التيارات الهدامة الى مهاوي الالحاد...

وما كنا لنرغب في التدخل بالشؤون الزمنية، ولكنه يستحيل علينا أن نقف مكتوفي الايدي، والنار تندلع في البيت اللبناني، ولا نسارع الى اطفائها، محافظة عليه لنا ولكم ولكل ابنائه".

أبعاد الطائفية في لبنان

بعد هذه المقدمة الفلسفية حول مفهوم الطائفية انتقل الى ابعادها في لبنان.

ان اكثر الذين كتبوا في الطائفية عندنا ارتكزوا على انها كلمة مرادفة للتعصب. هذا هو الرأى السائد تحت سمائنا. هنا ينبغي لي أن أميز بين التعصب الديني والتعصب الطائفي.

الاول تزمت في الشعور الديني يرمز الى تعصب اللبناني الفرد ازاء اللبناني الفرد. هذا التعصب هو في طريق الزوال. ربما زال ايضاً. وذلك عائد الى أن اللبناني الفرد قد اقتبس بروح العصر والعلم. تعصرن في الكثير من مسالكه الخارجية، وتعلمن في الكثير من

تصرفاته المدنية. وهكذا انفتح على كل الاديان. وصار يعتبرها مطلات خاصة على الحقيقة الالهية. الامر الذي حدا اللبناني الفرد في المدات الاخيرة على اكثار اللقاءات العامة بين المسيحيين والمسلمين لتقريب وجهات النظر احساساً منه باخوة لبنانية واحدة لدى الجميع.

اللبناني المواطن هو الذي غدا متمسكا بطائفته التي يرى نفسه مناخا الى أن يذود عن كرامتها ومصلحتها ذودا يعتبره دفاعا واجبا عن كرامة الوطن ومصلحته. لقد جمعن الدين. قومنه. شعبنه. وهذا حق من حقوقه لان الدين هو أكثر من موقف لبناني فرد ازاء لبناني فرد. هو موقف مواطن لبناني ازاء مواطن لبناني حاملا معه قسطا كبيرا من المعنى الحضاري الذي يعود الى جهود الطوائف اللبنانية عبر مئات السنين. وهكذا دخل التاريخ الاثني في مفهوم الدين. هذا التعصب الطائفي الذي زادت شوكته، وتزيد يوما بعد يوم، هو ما سأدرج على تسميته بالعصبية الطائفية. وهو الذي كشفت عنه الستار في مقدمتي الفلسفية. وقد زاد لانه يمثل الدين ممظهرا في نطاق الاجتماع. هو ناحية ايجابية من الدين ترينا عمقه الثابت في كياننا اللبناني. ترينا السبب الذي يجعل الطائفية لا تلغي وربما لن تلغى. اللبناني اشد خلق الله تمسكا بها من حيث العمل وان كان يرمي بالفكر الى الغاء التعصب الديني. وقد قلت بأن الطائفية ساقتنا هي ذاتها في الآونات الأخيرة الى أوضح أشكالها...اي الى المطالبة بها علانية في الادارة والاجتماع والسياسة. من هنا اعتقادي الثابت بأن الصراع تحت سمائنا لا يدور بين الدين والالحاد. وانما هو في حقيقة أمره بين طائفية وطائفية. نحن لسنا ملحدين. نحن لا نستطيع أن نلحد.

الالحاد الذي بدأ يظهر في لبنان هو الحاد افراد...أي الحاد فردي. وانه لاقرب الى التذمر، المشروع احيانا، من قساوة بعض المراسيم الدينية، أو من تصرفات بعض رجال الدين. وقد ادركت السلطات الدينية المسؤولة، وكان بدء الاصلاح الداخلي، الذي يستلزم بعض الوقت كي يعطي ثماره. هذا الالحاد يمكن تسميته باللاكاهني (Anticlerical) وقد عرفه الغرب كما عرفه الشرق. وعرفناه نحن ايضا في لبنان. اخص بالذكر شبلي شميل وجبران خليل جبران وامين الريحاني وانطون سعادة.

هناك نوع آخر من الالحاد اعمق واخطر واعوص. هو ذلك الذي يتناول الدين في منبعه ويحاربه على المكشوف. هذا الالحاد يمكن تسميته باللاديني (Antireligious). وهو يتميز بطابعين :

الطابع الاول يقوم على ايديولوجية فلسفية يبرر بها الملحد ايمانه السالب. من واجب الملحد أن يعقلن الحاده، الذي يصبح بافعول التفلسف دينا مقلوبا...دينا يمشي رأسا على

عقب، لكنه دين على كل حال. وهكذا يعود الملحد ليقع في الدين والطائفية معا. اذ الملحد بحاجة هو ايضا الى مراسيم يشرع بها الحاده...بحاجة الى طقوس وتقاليد تحافظ على هذا الالحاد عبر التاريخ . من هنا الطابع الثاني الذي للالحاد. الملحد لا يكتفي بالخط العمودي من دين الحاده. لا يكتفي من الالحاد بالعلاقة الشخصية بين الانسان واللااله. وانما يناضل لاجل تحقيق لا الهية اله في العلاقة التي تربط بين الانسان والانسان. هو الحاد ملتزم. يتحدى. يبشر. يقتحم السوسيولوجي ميدانا لتنفيذ الحاديته. وانه لعلى حق من هذا القبيل. فجوهر الدين واللادين، الذي هو دين ايضا، يتطلب ميادين المجتمع كمختبر لاعماله، والا كان مشلول الفعالية. لذا يستتبع الالحاد دولة ملحدة لانه ليس الحاد فرد.

لقد تعقلن. وكل ما يتعقلن يتعقدن. وكل ما يتعقدن يتجمعن. وكل ما يتجمعن يتقومن. وكل ما يتقومن يتدولن. وكل ما يتدولن يتسيس.

ان الرابطة بين هذا الالحاد والدولة الملحدة أمر لازم. فقط دولة ملحدة على المكشوف تعترف به. فقط في ظل دولة ملحدة يستطيع أن يعيش. الماركسية هي اسمى تعبير عن ذلك الالحاد الملتزم الذي غدا دين الحكم السياسي في الدولة السوفياتية. الحاد كهذا غير موجود تحت سماء الشرق العربي، ولا سيما لبنان، لأن تركيبنا الاثني هو تركيب ديني. والدين بحاجة الى طائفية. فاذا كانت الطائفية هي حقا في أساس كل مشاكلنا فيجب عليها أن تكون أيضا في أساس كل حلولنا لتلك المشاكل.

اذا الصراع في لبنان يدور بين طائفية وطائفية لا بين الدين والالحاد... يدور بين تعصب طائفي وتعصب طائفي، بين طائفية مسيحية وطائفية اسلامية. تلك هي المشكلة بل المعضلة. وذلك هو بالذات واقع الحال. ان المطالبة جهارا أو خفية بالغاء الطائفية نوع من المداهنة. نحن لا نجرؤ على القول صراحة بأن المعركة تدور بين عصبية طائفية من جهة المسلمين وعصبية طائفية من جهة المسيحيين. ولا نجرؤ على القول بأن في اساس بصراحة أنا خائف. على من ؟ على ذاتي من خلال طائفتي. ممن ؟ من المسلم في لبنان. هذا واقع حالي بل واقع الحال عند كل المسيحيين الذين هم في ضفتي. أنا لست خائفا من الانسان في المطلق، ولا من اللبناني في المطلق، أنا خائف من لبناني معين هو المسلم. وأنا لا أخافه وقت الاستقرار الذي نتغنى فيه جميعا بالوحدة الوطنية. تلك الاويقات لا يعول عليها لأنها لا تصدر عن قاع وجودنا. أنا أخاف المسلم حين يضطرب حبل الامان. فتتأزم الاعصاب وترتج الاعماق وتتفجر الشروش الاتافيسيمية، أي الوراثية البيولوجية التاريخية الاجتماعية، وبكلمة الشروش الاثنية. أجل ! أنا خائف من المسلم

وقت اللحظات المصيرية الحاسمة التي يصبح فيها المسلم الفرد جزءا مـــن تيـــار عـــارم، يتخطاه،

ويفقده وسط هديره الزاعق وانجرافه الصاخب القدرة على المطابقة بيـــن موقفـــه الفـــردي المتسامح وسلوك المجموع المتعصب. في مثل تلك اللحظات تطغى الطائفية على كل مســـلم فرد من اللبنانيين.

لو كان الخوف من جهتي فقط لما جاء مصيريا وعنيفا للغاية. كلنا خـــائفون. يعنـــي أن المسلم هو أيضا خائف. على من ؟ على ذاته من خلال طائفته. ممن ؟ مني أنا المسيحي في لبنان. هذا واقع حاله بل واقع الحال عند كل المسلمين الذين هم في ضفته. هو ليـــس خائفا من الانسان في المطلق، ولا من اللبناني في المطلق، انه خائف من لبناني معين هـــو المسيحي. وهو لا يخافني وقت الاستقرار الذي نتغنى فيه بالوحدة الوطنية. تلك اويقات لا يعول عليها لأنها لا تصدر عن قاع وجودنا. هو يخاف المسيحي حين يضطرب حبل الامان، فتتأزم الاعصاب وترتج الاعماق وتتفجر الشروش الاتافيسيمية، أي الوراثيـــة البيولوجيـــة التاريخية الاجتماعية، وبكلمة الشروش الاثنية. أجل ! هو خـــائف مـــن المســـيحي وقـــت اللحظات المصيرية الحاسمة التي يصبح فيها المسيحي الفرد جزءا من تيار عارم، يتخطـــاه، ويفقده وسط هديره الزاعق وانجرافه الصاخب القدرة على المطابقة بيـــن موقفـــه الفـــردي المتسامح وسلوك المجموع المتعصب. في مثل تلك االلحظات تطغي الطائفيـــة علـــى كـــل مسيحي فرد من اللبنانيين.

مثله مثلي ومثلي مثله. ان خوفي يرتبط ارتباطا عضويا بخوفه، وان خوفه يرتبط ارتباطـــا عضويا بخوفي. خوفي امتداد لخوفه ورد عليه، خوفه امتداد لخوفي ورد عليه. اذا هـــذا الخوف هو خوف لبناني ازاء لبناني. هو خوف لبناني. هل نزيله ؟ البعض يظن أن الغاء الطائفية يزيله. الى هذا البعض أريد أن أوجه كلمتي.

نحن لا نستطيع أن نلغي طائفية اتافيسيمية أي طائفية تراثية عمرها عمر مئات من السنين. تلك الطائفية لا تلغى بمرسوم، ولا بمقعد تحت القبة البرلمانية، ولا بمركـــز فـــي الـــوزارة. الفكر المجرد لا يلغي واقعا بيولوجيا تاريخيا اجتماعيا. الذهنيات لا تلغي الاثنيات. فبجـــانب الارادة الفردية، في الانسان، ارادة مجموعية أكثف. الفرد لا ينتبه انه يسير بموجب هـــذه الارادة المجموعية التي تذهب الى أبعد من منطق العقل الهزيل. بها ارتبطت مهمة الحفـــاظ في التاريخ على القيم الانسانية . ان كل النداءات الفردية عندنا فاشلة حيـــال هـــذه الارادة المجموعية. فاشلة لأنها تجهل حقيقة الطائفية. تجهل ما في الطائفية من نواح ايجابيـــة

هي وليدة أجيال وأجيال من التاريخ الفاعل البناء. لنأخذ الطائفية الادارية مثلا على ذلك الجهل.

الموظفون الاداريون مأخوذون في لبنان حسب توزيع طائفي متفق عليه. ولا بد لهذا التوزيع من أن يصطدم احيانا مع ما تتطلبه الروح العلمية من تخصص وكفاءة. فقد يصادف لهذه الطائفة أو تلك أن لا يكون بين أبنائها الذين يتقدمون باسمها من هم على مستوى الكفاءة والتخصص ومع ذلك فان الدولة تعينهم. هنا تقوم قيامة اللاطائفيين لينادوا بالويل ويترحموا على العلم الذي داسته اقدام الطائفية. وترتفع الاصوات مطالبة بالغائها. والطائفية لم تلغ حتى الآن، بل زادت، وهذا دليل الى انها لن تلغى.

لماذ ا ؟ لأن العلة ليست من الطائفية التي هي تركيب سياسي قائم على مزاج اثني. العلة هي من الاقطاعية التي تتذرع بالطائفية لتنفذ شهوات الزعماء الاقطاعيين. لدى الطوائف كلها عناصر ممتازة علما وخلقا. لكن الاقطاعية هي التي تعرقل مجيئهم الى مراكز الدولة. فاذا صادف لاحدى الطوائف أن خلت من الموظف الذي يتمتع بالكفاءة والمناقبية (وهذا نادر) فالطائفية عينها تحافظ على قسط تلك الطائفة في الاسهام الاداري. وانه لحق من حقوق تلك الطائفة يكون حافزا لها كي تعمل على رفع المستوى العلمي بين ابنائها. وبذلك تغدو على قدم التساوي مع الطوائف الباقية. لولا الطائفية ما تحمست الطوائف وتنافست لاجل خدمة الادارات في هذا البلد. فاذا كانت الطائفية مضرة بعض الاحيان على الصعيد الفردي فانها نافعة دائما على الصعيد المجموعي.

اذا القضية واضحة . علينا أن ننتقي الكفاءات بواسطة المباراة الصارمة دون المس بمبدأ الطائفية. لكن الاقطاعية الفاقعة الفاحشة هي التي تعثر العمل الايجابي. فهي ترفض المباراة واذا رضيت ظاهرا بها نسفتها باطنا ليصل كل زعيم اقطاعي الى مآربه الشخصية .

هكذا تضيع الكفاءات العلمية ، التي ما خلت منها طائفة ، وتتهافت المناقبية ، التي ما غابت عن طائفة من الطوائف اللبنانية الكريمة . ان ازدياد الطائفية ، رغم كل النداءات المعاكسة ، دليل الى انها ذات مناعة صامدة ، في مكان ما ، من وجودنا القومي الانساني ... مناعة انحجبت عن اذهان اللاطائفيين . وإلا لامحت الطائفية وصارت في خبر كان مطوية خلف غياهب النسيان .

لنفترض أن الكفاءات العلمية والمناقبية أتت بالموظفين الى مراكز الدولة فهل يزول الخوف الذي يفتت اللحمة القائمة بين المسلم والمسيحي في لبنان ؟ يقيني أنه لا يزول . ذلك ان الطائفية الادارية جزء من طائفية اعم ... هي الطائفية الاجتماعية .

لنتصارحن . المسلمون ككل يشعرون بانهم تابعون . هم في المقام الثاني من حيث العمران. المناطق المسيحية اكثر ازدهارا واوفر علما واسرع انفتاحا على مدنية الغرب الحديثة . المناطق الاسلامية متخلفة بشكل عام .

لا اريد أن ابحث عن سبب هذا التخلف الاجتماعي في المناطق الاسلامية ز اهو ناتج حقا عن تأخير يتعمده الحكام المسيحيون أم عن اقطاعية متأصلة عند المسلمين هي أعند من تلك التي تتحكم في المسيحيين ؟ أجل ! لا أريد أن ابحث عن هذا السبب . انني ارسم واقعا بايجابية صريحة . هذا الواقع يرينا التخلف الاجتماعي أوضح في المناطق الاسلامية . الامر الذي جعل المسلم يعاني بسببه عقدة نفسية جارحة . انه محروم . لذلك رفع صوته عاليا في سبيل عدالة اجتماعية صحيحة وعى ضرورتها اخيرا واشرف على عهد جديد خلاق . ان البيان الذي اذاعته في عيد الاضحى المبارك شخصيات اسلامية مرموقة اظهر بكل وضوح الاندفاع نحو التجدد الذاتي الاسلامي . من بعض ما جاء في هذا البيان العظيم :

(تجدد التشريع الاسلامي للاحوال الشخصية واجتهاد أحكام فيه تستهدف صون كرامة الشخصية الانسانية . وتأمين تقدم المجتمع وحفظ حياة الاسرة ، وتحقيق المساواة التامة في الحقوق والواجبات بين المرأة والرجل التي يقضي بها الاسلام . ويجب أن يكون القيمون على تطبيق هذا التشريع اسوة لسائر الناس في الخلق والعلم والمعرفة ... ان ثورة الشباب على الاوضاع الراهنة هي ثورة حق تعبر عن التطلع العام نحو مجتمع يقوم على الصدق والحرية والعدالة . وإن الجيل الجديد من أبناء جميع الطوائف الاسلامية مدعو للتحرر التلم من اختلافات الماضي الشكلية والاعتصام بجوهر الاسلام) .

أجل أخيرا اشرف اللبناني المسلم على عهد جديد خلاق . ولكن لنفترض أن العدالة الاجتماعية عمت . عمت في لبنان المستشفيات والكهرباء والماء والمدارس والطرق والطرقات كل المناطق الاسلامية ، وهكذا تساوت الطائفتان الكبيرتان على صعيد العدالة الاجتماعية، فهل يزول الخوف الذي يفكفك اللحمة القائمة بين اللبناني المسلم واللبناني المسيحي ؟ يقيني انه لا يزول. ذلك أن الطائفية الاجتماعية جزء من طائفية أعم هي الطائفية السياسية أو الاصح القومية. هناك رئاسة الدولة التي اتت تعبيرا سياسيا عن القومية اللبنانية. مؤخرا قام رئيس حزب يقول باسم التقدمية الاشتراكية ان لغير المسيحيين الحق في الرئاسة الأولى. هنا تتخطى معالجتنا الابعاد الطائفية حدود لبنان كي تتناولها في ما لها من علاقة بالعالم العربي

٢ – أبعاد الطائفية في العالم العربي

ان مطالبة غير المسيحيين برئاسة الجمهورية ترفع قضية الطائفية الى اعلى المستويات الحضارية. رئاسة الجمهورية عندنا ليست تمثيلا اداريا كي يحدث الصراع حولها بين مسيحي وغير مسيحي يريدان التوظيف. لهذه الرئاسة معنى حضاري بعيد المغزى، يجعلها من أخطر مراكز الثقل في الشرق العربي لا سيما بعد عام ١٩٤٨ . فاذا كنا لا ننتبه الى كل مضامينها السياسية، في ضوء الاحداث العالمية، بل في ضوء التاريخ الانساني العام، انثغرت السفينة اللبنانية دفعة واحدة، وجرت كارثة مصيرية على الشرق العربي، وبالتالي على المعمورة كلها. لذا ينبغي لنا، اليوم وليس غدا، أن نضع النقاط على الحروف، بصورة ايجابية واضحة.

١٩٤٨ عام فاصل في سجل شرقنا وسجل الامم كلها. عامذاك اتى الصهاينة ليغتصبوا وطنا يدعونه، بعد مرور الفي سنة على مجيء المسيح، فنسفوا الاوضاع القائمة نسفا كاملا، بما يتخطى السياسة والقومية، اذ راحوا يدفعون دواليب الاحداث الى الوراء، بنظرية اسكاتولوجية هي تماما عكس حتمية التاريخ، دون أن ندري نحن أن مفاهيم جديدة بدأ القدر يخطها لنا، كي نقوم برسالة ذات معنى آخر بين شعوب الارض.

أجل ! لم يكن ليخطر ببالنا أن هذا التغيير، الذي حدث عام ١٩٤٨ ، يضرب في قاع وجودنا الديني، الذي هو قاع وجود ثلاثة ارباع المسكونة. لم يخطر ببالنا أن مصير الانسانية قد طرح مرة أخرى على بساط البحث فوق ربوعنا. فالسؤال الذي ارتسم في بيت لحم، منذ الفي سنة، عاد اليوم بالضراوة ذاتها. أجل ! لم يخطر ذلك ببالنا عام ١٩٤٨ . فظللنا نعالج أحدث القضايا العالمية باعتق المفاهيم السياسية.

وتتالت الهزات من وقتها على منطقة الشرق العربي. ويظهر أننا لم نفقه حتى الآن معنى التغيير الذي طرأ. لم نفقه لاهوتية التاريخ. بعد الثامن والعشرين من كانون الاول في السنة الماضية، أي في اثر الاعتداء على مطار بيروت الدولي، رفع الستار عن أخطر هزة حصلت عندنا يمكن اعتبارها تنبيها آخر لنا وللعرب ايضا، قد يكون الأخير، كي نعيد النظر بجد في مفاهيمنا التقليدية. بعد سنة ١٩٤٨ غدونا مجبرين على أن نعالج كل قضايانا القومية في ضوء الخطر الصهيوني الذي يهدد العالم كما يهدد لبنان والشرق العربي. رئاسة الجمهورية عندنا غدت هي أيضا وخصوصا مدعوة الى أن تعالج في ضوء الخطر الصهيوني الذي اذا اجتاح لبنان فقد اجتاح الشرق العربي كله.

ان انتقال رئاسة الجمهورية الى غير المسيحيين في لبنان لا يتم الا باحدى الطريقتين التاليتين : اما العلمنة واما الطائفية. ابدأ بالعلمن.

سأفترض أننا علمنا الدولة اللبنانية، وهكذا فتحنا باب الرئاسة الاولى، على مصراعيه، كي يتبوأها مطلق لبناني يتحلى بالكفاءات اللازمة، وهي كثيرة بدون شك عند كل الطوائف اللبنانية.

ماذا يكون موقف غير المسيحيين، لو حاز يهودي من لبنان رئاسة الجمهورية اللبنانية، ومن الثابت أن كل يهودي هو صهيوني بالقوة ان لم يكن بالفعل ؟ الا تعتقدون معي ان الصهيونية ستقفز بجشع على هذه الفرصة الذهبية لترمي في حلبة الانتخابات كل ارصدتها العالمية، المالية منها والسياسية، كما فعلت سابقا مع الشعوب العربية، كي توصل بشتى الطرق والاساليب الى رئاسة الجمهورية يهوديا صهيونيا من لبنان، قبل أن يدرك أحد من غير المسيحيين هذا المنصب الرئاسي الاول ؟ أن يكون رئيس جمهوريتنا يهوديا صهيونيا من لبنان فمعناه وضع ديناميت ساحق ماحق في صميم الشرق العربي والعالم كله.

اذا سأغلق باب العلمنة. تبقى الطائفية. وهو الواقع الصراح. اننا نتصارع طائفيا حول الرئاسة الاولى متذرعين لا أكثر بمبادىء العلم والعلمنة والعلمانية. وهي كلها مبادىء أقنعة تخفي وراءها حقيقة واحدة : غير المسيحيين يشتهون رئاسة الجمهورية، والمسيحيون لا يتخلون عنها، ولن يتخلوا، حفاظا منهم على لبنان والامة العربية والعالم الاسلامي، وبالتالي حفاظا على المسيحية العالمية قاطبة.

سانطلق من معادلة بسيطة. هي التالية: اما أن يكون لبنان جزءا من العالم العربي، واما أن لا يكون لبنان جزءا من العالم العربي. اذا لم يكن جزءا من العالم العربي، فلتكن الرئاسة بالتناوب فيما بين الطوائف، الامر الذي يستتبع معه شرطين اساسيين : التدويل والتلتين. ذلك لأن لبنان يفقد الصفة العربية فقدانا كليا. الواقع ينقض هذا الاعتبار. بعد ١٩٤٨ دخل لبنان بالفعل في دوامة المصير الذي للشرق الأوسط.

يبقى أن لبنان هو جزء من العالم العربي. طبيعي بل واجب أن يتطور الجزء كما يتطور الكل. فكيف يتطور العالم العربي ؟ أنحو العلمانية أم نحو الطائفية ؟ الجواب صريح. في العالم العربي لا يوجد خطر على الاسلام من غير المسلمين. ومع ذلك فقد أعلنت شعوبه بالعرف أو بالدساتير أن الاسلام دين الدولة. مما يعني أن الاسلام دين ودولة. مما يعني أيضا أن العالم العربي يتطور نحو الطائفية ذاهبا من أضيق اشكالها الى أوسعها انفتاحا على العصرنة. مهما ضرب الاسلام في مجالات العصرنة فانه يتعصرن ضمن اطارات الطائفية. وهكذا يبقى الاسلام طائفيا على كل حال. مما يعني أخيرا أن الطائفية لن تزول من العالم العربي وبالتالي لن تزول من لبنان. وتلك حسنة كبيرة. ان النظام الطائفي هناك وهنا هو الضمان الاوحد لسلامة لبنان والامة العربية والعالم الاسلامي من االغزو الصهيوني. مثل

الطائفية في البلاد العربية مثلها في لبنان. بل مثلها في لبنان يجب أن يكـــون أرســـخ. اذ االمعركة االدائرة اليوم لم تعد في جوهرها بين المسلم والمسيحي. بعد ١٩٤٨ غـــدت بين اليهودية المتصهينة مـــن جهة و " النصلامية " من جهة أخرى.

هذا يؤكد لنا أن للمسيحية في العالم العربي دورا حضاريا كبيرا يجب أن تقوم به في الوقـت الحاضر. وذلك لن يتم الا اذا كان المسيحيون في الشرق االعربي يتمتعون باستقلال قومـــي صريح. لبنان هو رمز هذا الاستقلال لكل المسيحيين في البلاد العربية. ثمة مـــا يقـــارب السبعة ملايين من المسيحيين المنتشرين في العالم العربي. طبيعي بل واجب والحالة تلـــك أن يكون لهم رئيس مسيحي واحد في الشرق الاوسط بين ثلاثة عشر رئيسا مسلما. وعليه فبعد ١٩٤٨ لم تعد المعركة حول الرئاسة الاولى في لبنان بين المسلم والمســـيحي لتظـــل مطروحة عندنا على صعيد الكم الاحصائي. لقد تخطت رئاسة جمـــهوريتنا هـــذا المفـــهوم العددي الضيق واتخذت مفهوما حضاريا أوسع هو من باب الكيف.

في هذا الضوء نفهم لماذا يعتبر الغرب الشرق الاوسط امتدادا له. لقد بدأ يظهر للعيـــان أن هذا الشرق هو منبع الغرب الروحي. لذا يقع حكما ضمن حزام الامن المسيحي في العالم.

لنبحثن حول معنى التاريخ بحثا حضاريا يعيد الاشارة. فماذا نرى ؟ نرى بمنظار القريب أن االغرب اتى بالصهيونية الى هنا ليعطل مسيرة الامة العربية نحو تحقيق قوميتها العربيـــة. لقد شعر الغرب أن تلك الامة العظيمة تنزع الى تحقيق ذاتها القومية. فلو صح هـــذا لـــها لعادت مرة جديدة الى مسرح الوجود العالمي بقوة جبارة هائلة تجعلها تسيطر على قـــارات ثلاث من جبل طارق الى باب المندب. وهكذا تخرج من دائرة الغرب لتدور مســـتقلة فـــي مدارها الذاتي. أجل ! لقد شعر الغرب عند نهاية الاستعمار القديم بأن الامة العربية تريـــد الاستقلال بعد قرنين كاملين. فجاء بالصهيونية خنجرا أو رأس حربة له في قلب تلك الامة.

هذا ما نراه بمنظار القريب. هناك منظار البعيد. فماذا نرى به ؟ نرى شـــيئين هـــامين : نرى أولا أن الغرب ليس المسؤول وحده عن تأخير الأمة العربية في مسيرتها نحو الوحـــدة القومية الكاملة. ثمة فرامل كابحة من ذات العرب عرقلت مسيرة امتهم نحو ادراك الوحـــدة المنشودة. تلك الفرامل العربية ذاتها سهلت طريق الغزو أمام الصهيونية. وهي تســـتحق معالجة على حدة في غير هذا المجال.

ونرى ثانيا أن الغرب لا يرتاح الارتياح الكلي لاسرائيل. لقد بدأ يشعر أن الصهيونية التـــي أقامها حارسا على تراثه وناطورا على حضاراته غدت من القوة والغطرسة والصلـــف مـــا جعلها تزهو عليه وتهدده وتتوعده بشر مستطير. لم ننس بعد ما قاله اشكول فـــي اليـــوم الثالث لاعتدائه على مطار بيروت. " ستتحقق اهدافنا ولو وقف العالم كله ضدنـــا ". هـــذا

القول يتبناه كل يهودي صهيوني في المعمورة. مثل هذا القول نبه الغرب الذي راح ينظر الى اسرائيل نظرته الى اجير خطر ونصير حاقد على الانسانية. لقد بدأ الغرب يتوجس خيفة من السيف اليهودي ذي الحدين الماضيين. لذا هو لا يريد أن يقطع شعرة معاوية مع الامة العربية. فلا يجد غير لبنان حليفه التقليدي بفضل المسيحية في هذه المعركة المصيرية له وللامة العربية والعالم كله على حد سواء.

الواقع أن الروابط القائمة بين لبنان والغرب هي أمتن من الروابط القائمة بين اسرائيل والغرب. انها قائمة في الدرجة الاولة على تفاهم روحي يمتد الى أبعد المواضي. مما يعني أن تلك الروابط ليست وليدة المصادفة ولا هي صورة عن مؤامرة كما يظن بعضنا. الغرب يعتبر لبنان صورته الخيرية في الواجهة الشرقية كما تعتبره الامة العربية صورتها الخيرية في الواجهة الغربية. اوروبا تختلف حضارة ومعتقدا عن العروبة والاسلام، والامة العربية تختلف حضارة ومعتقدا عن الغرب والمسيحية.

هذا التزاوج في شخصية لبنان بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي جعله ملك الاثنين معا. فكما أن العالم الاسلامي لا يتخلى عن لبنان في معركته المصيرية هذه كذلك العالم المسيحي فانه لا يتخلى عن لبنان في معركته المصيرية هذه. تلك هي واحدة من الحقائق التي جهلتها الصهيونية يوم اعتقدت أن لعبتها في تشيكوسلوفاكيا تسمح لها أن تعتدي على مطار بيروت الدولي لتنتهك الحرمة اللبنانية. فكان أن وقف الغرب لاجلنا في وجه الصهيونية وقفة صارمة كما لم يقفها يوم احتلت القدس... أجل ! القدس العزيزة على تراث المسيحية والاسلام. لماذا ؟ لأن المسيحية والاسلام تنازعا في الماضي السيطرة العسكرية على القدس. وهكذا انزلاها عن عصمة الاخذ بالسيف، الا لبنان، فانه لم يحصل تاريخيا فيه تنازع عسكري عليه. بالعكس. لقد تعانق فوق أرضه المسيحية والاسلام تعانقا سليما مدهشا. فاذا به البلد النموذجي الذي يراود خيال الانسانية في رنوها الى السلام الصحيح.

الحقيقة التي اغفلتها اسرائيل يوم لعبت لعبتها في تشيكوسلوفاكيا هي أن الغرب الرأسمالي يختلف مع روسيا البولشفية على نظرة معينة لنظام الحياة والحكم والاقتصاد والمفاهيم المادية والروحية. لكن الغرب يعرف تماما أن روسيا بنت الحضارة المسيحية. وليس بينه وبينها تنافر كياني مصيري نهائي. لذلك يقف معها في وجه الخطر الاصفر كما تقف معه. هذا التمازج الكياني المصيري النهائي ليس له وجود بين اليهودية والحضارة الغربية المسيحية رغم كل ادعاءات اسرائيل أنها بنت الحضارة الغربية. ففي أعماق النفس الغربية كراهة لليهودية واسرائيل لا تعادلها الا كراهة اسرائيل للمسيحية وغيرها من رسالات

السماء. ذلك أن المعركة الحضارية القائمة ليست بين المسيح والقرآن بل بين المسيح واليهود... بين المسيح الذي اتى والمسيح الذى ما اتى. الاسلام يعترف بالمسيح نبيا مرسلا، من روح الله، ويقول انه لم يصلب اكراما لنبوته. النصرانية تقول انه صلب ليفدى الجنس البشري من الخطيئة الاصلية.

اليهودية تقول ما اتى. ها هنا العلامة المرتسمة في افق المصير بين المسيحية واليهودية. وقد عملت الصهيونية، في مختلف مراحل تاريخها الحاقد، على تدمير المسيحية في ايمانها. رمت شعوبها بفكرة الحرية البعيدة عن اطار الدين. مزعت اخلاقها. رجمتها بالمادية والالحاد. خلقت بين شعوبها الحروب الطبقية منذ أن افتعل ماركس اليهودي حركة الشيوعية للقضاء على المجتمع. في كل هذه الوقائع انحصرت المؤامرة اليهودية على المسيحية. والاسلام لم يسلم من شرها. غير أن المؤامرة الكبرى لم تنجح اليوم نجاحها المنتظر كما رسم لها الربانيون والحاخامون. لقد ظل في وسع بلد كفرنسا أن يقول بفم ديغول الذي يمثل أوروبا الآرية المسيحية، أن يقول : لا، لكوهين باندیت وما يمثله من خصائص الحقد اليهودي الطائش. لذلك اخطأت اسرائيل في تقديرها، للظروف التاريخية، اذ اعتقدت أن عداء الغرب لروسيا اقوى من عدائه للصهيونية، ,وأن ما سمح به لروسيا السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا سيسمح به لاسرائيل في لبنان. وكان الاعتداء على مطار بيروت الدولي في الثامن والعشرين من كانون الاول عام ١٩٦٨ .

وكان انهيار اسرائيل لاول مرة خلل قرنين كاملين. وكانت الحماية العالمية التي خص بها لبنان. الواقع أن تلك الحماية تأتينا من جهتين : انها حماية عربية اسلامية تنبع من كوننا جزءا لا يتجزأ من الروحية العربية، وانها حماية اوروبية مسيحية تنبع من كوننا جزءا لا يتجزأ من الروحية الغربية. اسراائيل لن تستطيع أن تقطع هذا الحوار االانساني الجبار الذي اقامه لبنان بين الروحيتين العظيمتين خلل مراحله التاريخية المتعاقبة على أرضه في ظل الحمايتين غير المنظورتين.

ذلك هو المغزى الحضاري الاسمى الذي للطائفية في لبنان. واليه تشير بكل وضوح رئاسة الجمهورية التي هي امانة مسيحية اسلامية في عنق الذي يتبوأ سدتها من المسيحيين. ان كل ما يزعزع هذا االنظام يسيء الى لبنان والعرب ولا يفيد منها الا العدو. لقد أرادت اسرائيل باعتدائها على المطار أن تفجر الاصطدام بين المسيحيين والمسلمين لتفضح النظلم الطائفي الذي نعيش في ظله... لتقول للعالم اجمع ان النظام الطائفي فاشل أساسا. لكنها اخفقت هي والحمدلله. ان تاريخ لبنان لا منع من سياسة االلبنانيين، ولا منع من رغبات الصهيونية القابعة خلف الباب. لذلك يقتضي الظرف الحالي الكثير من برودة العقل، الكثير

من رباطة الجأش، الكثير من ايجابية العلم، الكثير من النظر الى اوضاعنا بمفاهيم الفلسفة والحضارة، الكثير من الثقة بالنفس، الكثير من المحبة الشاملة الكونية، االكثير من الايمان بالله العليم بكل شييء، والقادر على كل شيء، والراسخ في كل شيء. والا احترق لبنان. أجل ! احترق هذه االمرة واحترق معه العالم العربي. رئاسة الجمهورية ليست بيضة القبان في لبنان، فحسب، بل هي بيضة القبان في العالم العربي والعالم اجمع. اللعبة هذه المرة تتجاوز خريطة لبنان. سيصاب محز الدينين معا، المسيحية والاسلام، بساطور عدو ماهر في الضرب، خدع الشعوب والامم مدة الفين من السنين الغابرة. فهل ندعه يفعل كذ ا؟

أيها الحفل الكريم

و كنت من زمرة المتسيسين ما قرأت عليكم هذا الذي يجول في خاطري منذ حين. لكنني عشير الدواة والعلم. ديدني الحقيقة بدون مرآة. وقد اعلنتها أمامكم كما هي في الخدر حيث لا يتوارى شيء. وهكذا ارتحت. واملي أن أكون قد ارحت أيضا. اذ لا شك عندي أن مشكلة الطائفية هي المعضلة الاولى والاخيرة التي تمزع نفوسكم تماما كما كانت تمزعني. لقد رفعتها من حضيض الابتذال الى السماك الارفع. اعطيتها معنى تاريخيا. اعطيتها الدلالة الحضارية التي لها بل التي يجب أن تكون لها. وذلك بدافع ايماني بلبنان الذي غدا في نظري الحامي الفكري الاكبر للمسيح والقرآن من افرس وحش عرفه الانسان منذ أن سوي انسانا عقل... من الصهيونية.

فعسى أن أكون قد وفقت في محاولتي هذه والسلام عليكم. كمال يوسف الحاج